مجلة متيجة للدراسات الإنسانية

المجلد5 العدد2 جوان 2025 ISSN: 2602-5639 - EISSN: 2830-8972

إشكالية الخطاب السوسيولوجي في الجزائر: من التنظير إلى الميدان أم من الميدان إلى التنظير؟

Rebuilding Sociological Discourse in Algeria: From Theory to Fieldwork or from Fieldwork to Theory?

د. قاسمي الحسني عبد المجيد/ أستاذ محاضر أ

Dr. Gasmi Lahasseni Abdelmadjid / Maître de conférences Classe A

قسم علم الاجتماع وعلم السكان – كلية العلوم الإنسانية والإجتماعية/ جامعة البليدة2

الايميل المهني للباحث الأول ea.gasmi-lahasseni@univ-blida2.dz

تاريخ الاستلام: 2025/03/06 تاريخ القبول: 2025/03/14 تاريخ النشر: 2025/06/26

الملخص باللغة العربية

يعاني البحث السوسيولوجي في الجزائر من أزمة مزدوجة تتمثل في هيمنة الطرح النظري على الدراسات الميدانية، والاعتماد غير النقدي على النظريات الغربية دون اختبارها في السياق المحلي، ورغم جذور السوسيولوجيا في الفترة الاستعمارية، إلا أن البحث الأكاديمي بعد الاستقلال ظل متأثرًا بالنماذج الغربية، مما أدى إلى إنتاج معرفة محدودة التأثير في الواقع الاجتماعي. وتواجه الأبحاث الميدانية عدة معوقات، منها نقص التمويل، البيروقراطية الأكاديمية، وضعف التكوين المنهجي في البحث الميداني. كما تعاني السوسيولوجيا الجزائرية من فجوة بين التنظير والميدان، مما يحدّ من فعاليتها في معالجة المشكلات الاجتماعية، ولتجاوز هذه الأزمة، يجب تعزيز التدريب على البحث الميداني، تشجيع التعاون بين الجامعات والمؤسسات الاجتماعية، وإعادة النظر في المناهج مقاربات تفسيرية مستمدة من الواقع الجزائري، مما يسمح بجعل السوسيولوجيا أداة فعالة في فهم وتوجيه التحولات الاجتماعية.

الكلمات المفتاحية: السوسيولوجيا الجزائرية، الأزمة المنهجية، البحث الميداني، النظريات الغربية، التحولات الاجتماعية.

Abstract:

The Algerian sociological field faces a methodological crisis due to the dominance of Western theoretical frameworks and the lack of locally adapted approaches. Despite significant social transformations, research remains heavily reliant on foreign paradigms, limiting its ability to accurately analyze Algerian realities. Field studies often suffer from weak methodological rigor, affecting the validity of findings. Additionally, the gap between academic research and decision-making institutions reduces the practical impact of sociological studies. To overcome these challenges, there is a need for a renewed methodological vision that integrates local perspectives while maintaining scientific rigor. Strengthening field research, diversifying theoretical approaches, and fostering collaboration between researchers and policymakers are essential steps. This would enhance the relevance of Algerian sociology, making it more reflective of national social dynamics and capable of contributing effectively to addressing societal issues.

Keywords: Methodological crisis ,Western theoretical models,Field research , Algerian social reality,Decision-making.

مقدمة:

يعد البحث السوسيولوجي أداةً أساسية لفهم التحولات الاجتماعية ورصد التغيرات التي تطرأ على البنية المجتمعية، وذلك من خلال مناهج علمية دقيقة تهدف إلى تحليل الظواهر الاجتماعية ضمن سياقاتها الثقافية والاقتصادية والسياسية. غير أن السوسيولوجيا الجزائرية تعاني، منذ نشأتها الأكاديمية، من أزمة مزدوجة تتمثل في غلبة الطرح النظري على الممارسة الميدانية من جهة، والافتقار إلى دراسات تطبيقية تُسهم في إنتاج معرفة مستمدة من الواقع الجزائري من جهة أخرى، فبدلًا من الانطلاق من العمل الميداني لاستخلاص القوانين الاجتماعية، يظل العديد من الباحثين في الجزائر أسرى الإطار النظري، فيكتفون بإعادة إنتاج النظريات الغربية دون اختبارها أو مواءمتها مع السياقات المحلية، هذه الإشكالية المنهجية تجعل البحث السوسيولوجي في الجزائر أقرب إلى مقاربة وصفية ذات طابع أكاديمي مغلق، مما يقلل من قدرته على التأثير الفعلي في السياسات الاجتماعية أو معالجة المشكلات المجتمعية بفعالية، فبينما تشهد المجتمعات المعاصرة تحولات متسارعة تفرض على الباحثين تبني مناهج أكثر ديناميكية، يبقى البحث السوسيولوجي في الجزائر حبيس مقاربات تقليدية تحدّ من فاعليته. والسؤال المطروح هنا: هل ينبغي للباحث أن يبدأ من النظرية ليختبرها ميدانيًا، أم أن الأفضل أن ينطلق من الواقع لاستخلاص النظرية من خلال المعاينة المباشرة للظواهر الاجتماعية؟

و اقع البحث السوسيولوجي في الجز ائر– التشخيص والإشكاليات

يمثل البحث السوسيولوجي في الجزائر جزءًا من مسار فكري عالمي يسعى إلى فهم الظواهر الاجتماعية ضمن سياقاتها الثقافية والتاريخية والسياسية، ومع ذلك، فإن هذا الحقل العلمي لا يزال يعاني من إشكالات بنيوية ومنهجية تجعل إنتاج المعرفة السوسيولوجية محدودًا، سواء من حيث العمق النظري أو من حيث الفعالية التطبيقية، فقد ظل البحث السوسيولوجي في الجزائر رهين قوالب نظرية مستوردة، في ظل غياب دراسات ميدانية معمقة تعكس الواقع الاجتماعي المحلي بموضوعية ودقة.

تعود جذور السوسيولوجيا في الجزائر إلى الفترة الاستعمارية، حيث كان البحث السوسيولوجي مُؤطَّرًا داخل الرؤية الكولونيالية التي سعت إلى دراسة المجتمع الجزائري من منظور يخدم المصالح الاستعمارية، فقد قام المستشرقون وعلماء الاجتماع الفرنسيون مثل **إميل ماسكاري وجاك بيرك** بإجراء أبحاث سوسيولوجية حول البنى الاجتماعية والقبلية في الجزائر، لكنها كانت تخضع لمنظور أيديولوجي يجعلها أداة لفهم المجتمع الجزائري بهدف السيطرة عليه، وليس بالضرورة بهدف تطويره أو الارتقاء به.(Berque, 1955) ، وبعد الاستقلال في عام 1962، بدأت الجامعات الجزائرية في تأسيس أقسام علم الاجتماع، مستلهمةً مناهجها وبرامجها الأكاديمية من المدارس الفرنسية، خصوصًا من النظريات الوظيفية والبنيوية التي كانت سائدة في ذلك الوقت، وقد برزت أسماء جزائرية مهمة في هذا المجال، مثل **عبد القادر جغلول وعبد الحميد بن زين**، الذين سعوا إلى تأسيس مقاربات سوسيولوجية أكثر ارتباطًا بالواقع الجزائري، ومع ذلك، فإن الإنتاج السوسيولوجي ظل محدودًا في تلك الفترة بسبب الظروف السياسية والاقتصادية التي أعاقت تطوير البحث العلمي بصفة عامة، أما مع بداية التسعينيات، شهدت الجزائر تحولات اجتماعية كبرى بسبب الأزمة الأمنية والاضطرابات السياسية، مما دفع الباحثين إلى إعادة التفكير في أدوات البحث السوسيولوجي، لكن ضعف الإمكانيات البحثية وغياب دعم الدولة حال دون تطوير دراسات ميدانية موسعة، مما أدى إلى استمرار الطابع النظري للبحث الأكاديمي في مجال السوسيولوجيا، ولا يزال البحث السوسيولوجي في الجزائر متأثرًا إلى حد كبير بالنظريات الغربية التي نشأت في سياقات اجتماعية مختلفة عن السياق الجزائري، فالعديد من الدراسات الأكاديمية تعتمد على مفاهيم ونظريات طُورت في أوروبا وأمريكا الشمالية دون محاولة اختبارها ميدانيًا في المجتمع الجزائري، هذا الاعتماد غير النقدي على المناهج المستوردة يجعل البحث السوسيولوجي في الجزائر غير قادر على إنتاج معرفة محلية دقيقة، بل يظل مجرد امتداد فكري لما تنتجه الجامعات الغربية.(Bourdieu, 1997)

ومن أبرز الإشكالات الناتجة عن هذا التوجه:

- إعادة إنتاج نفس الأطروحات النظرية دون تطوير مفاهيم جديدة تستجيب للواقع الجزائري.
- عدم مراعاة الخصوصيات الثقافية والاجتماعية للمجتمع الجزائري في التحليل السوسيولوجي.
- إقصاء المنهجيات البحثية المحلية لصالح النظريات الغربية الجاهزة.

بالإضافة إلى ضعف الدراسات الميدانية، والتي تعتبر ركيزة أساسية في البحث السوسيولوجي، إذ تتيح للباحث فهم الظواهر الاجتماعية من خلال الملاحظة المباشرة والتفاعل مع المجتمع المدروس، ومع ذلك، فإن أغلب البحوث السوسيولوجية في الجزائر تفتقر إلى العمل الميداني، حيث يعتمد العديد من الباحثين على تحليل النصوص والنظريات بدلاً من النزول إلى الميدان لجمع البيانات وتحليلها، وهناك عدة أسباب وراء هذا القصور الميداني، أبرزها:

- **نقص التمويل والدعم**: يعاني البحث العلمي في الجزائر من غياب ميزانيات مخصصة للأبحاث الميدانية، مما يدفع الباحثين إلى الاكتفاء بالدراسات النظرية.
- **البيروقراطية الأكاديمية**: تواجه الأبحاث الميدانية العديد من العراقيل الإدارية التي تعيق تنفيذها، خاصة فيما يتعلق بالحصول على تراخيص البحث أو الوصول إلى البيانات الرسمية.
- **غياب التكوين المنهجي في البحث الميداني:** معظم برامج التعليم الجامعي في الجزائر تركز على الجوانب النظرية دون تدريب الطلاب على تقنيات البحث الميداني مثل الملاحظة بالمشاركة أو المقابلات العميقة.

ما يعبر عنه محدودية تأثير البحث السوسيولوجي في صناعة القرار، فبالرغم من أهميته في توجيه السياسات العامة، إلا أن هناك فجوة كبيرة بين ما تنتجه الجامعات الجزائرية من أبحاث وما تحتاجه المؤسسات الحكومية وصناع القرار، فلا تزال الدراسات السوسيولوجية بعيدة عن مراكز صنع القرار، حيث يقتصر تأثيرها على الأوساط الأكاديمية دون أن تمتد إلى رسم السياسات الاجتماعية أو الاقتصادية، وتُعزى هذه القطيعة بين البحث الأكاديمي وصناع القرار إلى:

- **ضعف التنسيق بين الجامعات والقطاعات الحكومية**، مما يجعل نتائج الأبحاث غير مستثمرة في التخطيط الاستراتيجي.
- **غياب ثقافة البحث التطبيقي**، حيث يركز أغلب الباحثين على الجانب النظري دون التفكير في آليات تطبيق نتائج أبحاثهم على أرض الواقع.
- **عدم توفر بنوك معلومات اجتماعية دقيقة** تسهل على الباحثين تحليل الظواهر الاجتماعية واتخاذ قرارات مبنية على معطيات واقعية.

العلاقة بين التنظير والميدان في البحث السوسيولوجي – إشكالية منهجية

يُعد البحث السوسيولوجي مجالًا معرفيًا يُفترض أن يجمع بين النظرية والتطبيق، حيث يتم تطوير الأطر النظرية انطلاقًا من دراسات ميدانية دقيقة، بينما يتم اختبار صحة النظريات عبر تحليل الواقع الاجتماعي المتغير. غير أن هذا التوازن المنهجي يواجه تحديات كبيرة، خاصة في السياقات الأكاديمية العربية والجزائرية تحديدًا، حيث يظل البحث النظري مُهيمنًا على الإنتاج السوسيولوجي، بينما يُنظر إلى العمل الميداني على أنه مجرد أداة مساعدة وليس ركيزة أساسية في بناء المعرفة السوسيولوجية، إن هذه الفجوة بين التنظير والميدان تطرح إشكالية علمية عميقة تتطلب إعادة النظر في الأسس المنهجية المعتمدة في البحث السوسيولوجي، خاصة في ظل التحولات الاجتماعية والاقتصادية التي يشهدها المجتمع الجزائري، فإلى أي مدى يمكن اعتبار هذه الفجوة نتيجة لقصور في المناهج البحثية؟ وهل يعود الأمر إلى طبيعة التكوين الأكاديمي للباحثين أم إلى إكراهات ميدانية تحول دون تنفيذ الدراسات التطبيقية؟ وما هي السبل الممكنة لتحقيق التكامل المنهجي بين النظرية والميدان في البحث السوسيولوجي بالجزائر؟

التنظير في السوسيولوجيا: المفهوم والأهمية

يُشير مفهوم التنظير في السوسيولوجيا إلى بناء نماذج تحليلية تساعد في تفسير الظواهر الاجتماعية من خلال وضع مفاهيم ومقولات علمية تُمكّن من فهم بنية المجتمع وآليات تغيّره .(Merton, 1968) وتُعتبر النظريات السوسيولوجية أداة أساسية في

البحث العلمي، حيث توفر إطارًا مفاهيميًا يساعد الباحثين على تنظيم وتحليل المعلومات المستمدة من الواقع، وقد تبلورت العديد من النظريات السوسيولوجية الكبرى التي شكّلت أساس البحث الأكاديمي، مثل:

- **النظرية الوظيفية** :التي تركز على دور المؤسسات الاجتماعية في تحقيق التوازن والاستقرار.
- **النظرية الصراعية** :التي تسلط الضوء على علاقات السلطة والصراع الطبقي.
- **النظرية التفاعلية الرمزية** :التي تهتم بالمعاني التي يضفيها الأفراد على سلوكياتهم اليومية.

غير أن الإشكالية الكبرى تكمن في أن هذه النظريات، رغم أهميتها، قد تم تطويرها في سياقات اجتماعية مختلفة، مما يفرض على الباحثين ضرورة اختبار مدى ملاءمتها للواقع الجزائري وعدم الاكتفاء بتطبيقها بشكل ميكانيكي، باعتبار أن البحث الميداني هو العملية التي يقوم فيها الباحث بجمع البيانات مباشرة من الواقع الاجتماعي، إما من خلال الملاحظة أو المقابلات أو الاستبيانات أو غيرها من أدوات البحث الكمي والكيفي(Babbie, 2020) ، ويعتبر الميدان المصدر الأساسي للمعرفة السوسيولوجية، حيث يسمح للباحث باختبار فرضياته وتطوير مفاهيم جديدة مستمدة من الواقع بدلاً من الاعتماد فقط على النظريات الجاهزة، ويؤدي البحث الميداني عدة وظائف أساسية، منها:

- **تحقيق الموضوعية العلمية** من خلال الاعتماد على بيانات واقعية بدلاً من الافتراضات المجردة.
- **اختبار النظريات وتطويرها** استنادًا إلى معطيات اجتماعية حقيقية.
- **إنتاج معرفة محلية** تتناسب مع خصوصيات المجتمع المدروس، بدلًا من استيراد نماذج تفسيرية غير ملائمة.

إن أسباب الفجوة بين التنظير والميدان في البحث السوسيولوجي بالجزائر راجع لهيمنة الطرح النظري على العمل الميداني، بالرغم من أن السوسيولوجيا علم ميداني بطبيعته، إلا أن معظم الأبحاث الأكاديمية في الجزائر تظل حبيسة الإطار النظري، ولا يتم اختبارها ميدانيًا بالشكل الكافي، ويمكن تفسير هذه الظاهرة بعدة عوامل، منها:

- **التكوين الأكاديمي التقليدي**: تعتمد الجامعات الجزائرية في تدريس علم الاجتماع على المقررات النظرية أكثر من التدريب على البحث الميداني، مما يضعف مهارات الطلاب والباحثين في استخدام الأدوات التطبيقية.
- **غياب التمويل والدعم المؤسساتي**: لا تتوفر معظم الجامعات الجزائرية على مراكز بحث ميداني مجهزة، مما يجعل إجراء الدراسات التطبيقية أمرًا صعبًا من الناحية اللوجستية.
- **البيروقراطية الإدارية**: يواجه الباحثون صعوبات كبيرة في الحصول على التراخيص اللازمة لإجراء بحوث ميدانية، خاصة عندما يتعلق الأمر بدراسات حساسة تمس قضايا اجتماعية أو سياسية.
- **تأثير المناهج الغربية**: بما أن معظم الباحثين في الجزائر يعتمدون على النظريات الغربية، فإنهم يميلون إلى التركيز على الجانب النظري دون محاولة اختبار هذه النظريات ميدانيًا. (السبتي, 2020)

تأثير الفصل بين التنظير والميدان على جودة البحث السوسيولوجي:

إن القطيعة بين التنظير والميدان تؤدي إلى عدة مشكلات علمية، أبرزها:

- **إنتاج معرفة غيرو اقعية**: يؤدي الاعتماد على النظريات الجاهزة دون اختبارها إلى إنتاج دراسات لا تعكس الواقع الاجتماعي الحقيقي.
- **غياب الابتكار العلمي**: عندما يكتفي الباحثون بتطبيق نظريات موجودة دون تطويرها أو تعديلها، يصبح البحث السوسيولوجي مجرد إعادة إنتاج للأفكار السائدة.
- **ضعف تأثير البحث السوسيولوجي في المجتمع**: بدون دراسات ميدانية دقيقة، يصبح البحث الأكاديمي غير قادر على تقديم حلول عملية للمشكلات الاجتماعية.

ومنه، لكي يصبح البحث السوسيولوجي أكثر تكاملًا، ينبغي الجمع بين المناهج الكمية التي تعتمد على الإحصاءات والاستبيانات، والمناهج الكيفية التي تركز على التحليل العميق للسلوكيات الاجتماعية من خلال المقابلات والملاحظة بالمشاركة، بحيث يعد هذا النهج المتعدد المناهج أكثر قدرة على تفسير الظواهر الاجتماعية بشكل دقيق وشامل (Creswell, 2014)، كما وجب كذلك إعادة هيكلة التكوين الأكاديمي في السيسيولوجيا بالجزائر من خلال:

- **تعزيز التدريب على البحث الميداني في المناهج الجامعية**: بحيث تصبح الدراسات التطبيقية جزءًا أساسيًا من تكوين الطلاب.
- **تشجيع التعاون بين الجامعات والمؤسسات الاجتماعية**: مما يتيح للباحثين إجراء دراسات ميدانية تخدم صناع القرار.
- **إعادة النظر في المقررات الدراسية**: بحيث تشمل تحليلًا نقديًا للنظريات الغربية ومحاولة تطوير نماذج تفسيرية مستمدة من الواقع المحلي.
- **تطوير مراكز بحث متخصصة في الدراسات الميدانية**: يحتاج البحث السوسيولوجي في الجزائر إلى مؤسسات بحثية مستقلة تعمل على توفير الإمكانيات المادية واللوجستية لإجراء الدراسات الميدانية، بالإضافة إلى تسهيل الوصول إلى البيانات والإحصائيات الرسمية.

من خلال هذا الطرح، يتضح أن القطيعة بين التنظير والميدان تعدّ من أبرز الإشكاليات التي تعيق تطور البحث السوسيولوجي في الجزائر، ولتجاوز هذه الأزمة، لا بد من تبني مناهج بحثية جديدة تدمج بين النظرية والتطبيق، مع التركيز على تطوير الدراسات الميدانية وتعزيز دور البحث الاجتماعي في صناعة القرار، فعبر هذه المقاربة، يمكن للسوسيولوجيا أن تتحول إلى أداة فعالة لفهم وتحليل الواقع الاجتماعي الجزائري.

المعوقات المنهجية والإبستيمولوجية للبحث الميداني في السوسيولوجيا الجزائرية

يعد البحث الميداني في السوسيولوجيا الوسيلة الأساسية للوصول إلى معرفة علمية دقيقة حول الواقع الاجتماعي، إذ يسمح للباحثين بجمع بيانات موثوقة، وفحص الفرضيات النظرية، وإنتاج معرفة ترتبط بخصوصيات المجتمعات المدروسة، ومع ذلك، فإن الواقع البحثي في الجزائر يواجه تحديات كبيرة تعيق تطور الدراسات الميدانية، ما يؤدي إلى استمرار هيمنة الطرح النظري وإلى القطيعة بين النظرية والتطبيق، حيث تتعدد العوائق التي تحول دون تنفيذ بحوث ميدانية ناجحة، وتنقسم إلى معوقات منهجية تتعلق بطبيعة المناهج البحثية المستعملة، ومعوقات إبستيمولوجية ترتبط بالتصورات الفلسفية

والعلمية التي تحكم العمل السوسيولوجي، هذه العوائق ليست مجرد إشكالات تقنية، بل هي انعكاس لبيئة بحثية تعاني من نقص في الموارد، وصعوبات ميدانية، وقيود أكاديمية وإدارية، مما يؤثر سلبًا على جودة البحث الاجتماعي وإمكاناته التفسيرية.

❖ المعوقات المنهجية للبحث الميداني في الجزائر

رغم أن السوسيولوجيا علم ميداني بطبيعته، إلا أن الأبحاث السوسيولوجية في الجزائر تعاني من ضعف في استخدام المنهج التجريبي. فغالبًا ما يعتمد الباحثون على التحليل النظري والمراجعات الأدبية دون النزول إلى الميدان لجمع البيانات. ويعود هذا القصور الذي يعبر عن غياب ثقافة البحث التجريبي في السوسيولوجيا الجزائرية إلى عدّة أسباب:

- **التكوين الأكاديمي النظري**: حيث تظل المناهج الكمية والكيفية مجرد مواد نظرية دون تطبيق عملي يمكّن الطلبة والباحثين من اكتساب مهارات البحث الميداني.
- **غياب ورشات بحث ميداني داخل الجامعات**: إذ لا توجد برامج بحثية مؤطرة تشجع الطلبة على إجراء دراسات ميدانية كجزء من مسارهم الأكاديمي.
- **ضعف التشجيع على البحث الميداني**: حيث يتم تقدير الأبحاث النظرية أكثر من الدراسات التطبيقية، ما يدفع الباحثين إلى تجنب العمل الميداني نظرًا لتعقيداته وتكاليفه.
- **صعوبات تحديد العينة البحثية**: يواجه الباحثون الميدانيون صعوبة كبيرة في تحديد عينات بحثية تمثيلية بسبب عدة عوامل، من بينها: (السبتي, 2020)

1. **غياب قواعد بيانات موثوقة** حول الفئات الاجتماعية المختلفة، مما يجعل اختيار العينة عملية معقدة وتقديرية.
2. **رفض المستجوبين التعاون** مع الباحثين، خاصة عند دراسة موضوعات حساسة، ما يؤدي إلى الحصول على بيانات غير دقيقة.
3. **صعوبة الوصول إلى الفئات المستهدفة**، خاصة في المناطق الريفية أو عند دراسة مجموعات هامشية يصعب تتبعها ميدانيًا.

- **مشكلات أدوات البحث (الاستبيان، المقابلة، الملاحظة)**: تعاني الأدوات البحثية المستخدمة في الدراسات الميدانية من عدة مشكلات تقلل من موثوقية النتائج، مثل:

1. **الاستبيانات الجاهزة** :حيث يعتمد بعض الباحثين على استبيانات نمطية دون تكييفها مع الواقع الاجتماعي المحلي، مما يؤدي إلى بيانات غير دقيقة.
2. **غياب التدريب على تقنيات المقابلة**، ما يجعل الباحثين غير قادرين على توجيه الأسئلة بفعالية واستخلاص إجابات عميقة.
3. **صعوبة تطبيق الملاحظة بالمشاركة** في بعض السياقات الاجتماعية، بسبب القيود الثقافية التي تحدّ من اندماج الباحث في الميدان.

❖ المعوقات الإبستيمولوجية للبحث الميداني

- **هيمنة النماذج النظرية الغربية:** تعتمد معظم الأبحاث السوسيولوجية في الجزائر على نماذج نظرية غربية تم تطويرها في سياقات اجتماعية مختلفة، مما يطرح إشكالية مدى ملاءمتها للواقع الجزائري. ويؤدي هذا الاعتماد المفرط إلى:
  1. إهمال الخصوصيات المحلية لصالح تصورات جاهزة قد لا تعكس طبيعة المجتمع الجزائري.
  2. تحويل البحث الميداني إلى مجرد وسيلة لتأكيد النظريات القائمة بدلاً من كونه أداة لاكتشاف معطيات جديدة.
  3. عدم تطوير نظريات محلية تنطلق من الواقع الجزائري وتقدم بدائل تفسيرية جديدة.
- **إشكالية الموضوعية والانحياز في البحث الميداني:** يمثل تحقيق الموضوعية في البحث السوسيولوجي تحديًا كبيرًا، حيث يواجه الباحثون صعوبات في تجنب التأثيرات الذاتية عند جمع البيانات وتحليلها. وتتمثل أبرز أشكال الانحياز في:
  1. التأثير الشخصي للباحث على المبحوثين، مما قد يؤدي إلى تحريف إجاباتهم.
  2. الانحياز التأويلي، حيث يميل الباحث إلى تفسير المعطيات بما يتماشى مع فرضياته المسبقة.
  3. انتقائية البيانات، حيث قد يقوم الباحثون بحذف المعلومات التي لا تتوافق مع توجهاتهم النظرية.
- **صعوبات تعميم النتائج:** يواجه البحث الميداني في الجزائر معضلة تعميم النتائج بسبب محدودية العينات وضعف أدوات القياس. وغالبًا ما تكون نتائج الدراسات غير قابلة للتطبيق على مجتمعات أوسع، مما يقلل من قيمتها العلمية.

العوائق الميدانية والإدارية والتشريعية

- **البيروقراطية وقيود التصاريح البحثية:** تفرض السلطات الإدارية في الجزائر قيودًا صارمة على البحث الميداني، حيث يتعين على الباحثين الحصول على تراخيص رسمية لإجراء دراساتهم، خاصة عند التعامل مع مؤسسات حكومية أو قضايا حساسة، ويؤدي هذا الوضع إلى:
  1. إطالة مدة إنجاز الأبحاث بسبب الإجراءات الإدارية المعقدة.
  2. فرض قيود على طبيعة المواضيع المدروسة، مما يحول دون دراسة بعض القضايا الاجتماعية والسياسية المهمة.
  3. صعوبة الوصول إلى البيانات الرسمية، حيث تظل العديد من الإحصائيات والتقارير مغلقة أمام الباحثين.
- **نقص التمويل والدعم اللوجستي:** تواجه البحوث الميدانية في الجزائر مشكلات تمويلية حادة، حيث لا تتوفر ميزانيات كافية لتغطية تكاليف التنقل، الإقامة، أو جمع البيانات. كما تفتقر الجامعات إلى مراكز بحث متخصصة تدعم الدراسات التطبيقية.
- **التأثيرات الثقافية والمجتمعية:** تعوق بعض العوامل الثقافية تنفيذ البحوث الميدانية، مثل:

1. رفض المجتمعات المحلية للبحث السوسيولوجي، نظرًا لضعف الوعي بأهميته العلمية.
2. التوجس من الباحثين، حيث يُنظر إليهم أحيانًا كمتجسسين أو ممثلين لمؤسسات رسمية.
3. الحساسيات الدينية والسياسية، التي تجعل دراسة بعض الظواهر الاجتماعية أمرًا محفوفًا بالمخاطر.

يبرز مما سبق أن البحث الميداني السوسيولوجي في الجزائر يواجه تحديات معقدة على المستويات المنهجية، الإبستيمولوجية، والإدارية، وتتمثل أبرز هذه التحديات في غياب ثقافة البحث التجريبي، صعوبة تحديد العينات، القيود البيروقراطية، وضعف التمويل، وهيمنة النماذج النظرية المستوردة، و من أجل لتحقيق نهضة في البحث السوسيولوجي، ينبغي العمل على تجاوز هذه العوائق من خلال تطوير المناهج البحثية، توفير بيئة داعمة للأبحاث التطبيقية، وتأسيس مراكز بحث متخصصة، كما أن تعزيز الوعي بأهمية البحث السوسيولوجي في فهم المجتمع الجزائري يعد ضرورة ملحة لضمان إنتاج معرفة علمية أكثر دقة وفعالية.

الخاتمة

لقد حاولت هذه المساهمة تسليط الضوء على واحدة من أهم المعضلات التي تعيق تطور البحث السوسيولوجي في الجزائر، وهي القصور الميداني الذي يحول دون بناء معرفة علمية دقيقة وواقعية حول المجتمع الجزائري، فمن خلال تحليل نقدي لجذور هذا القصور، تبين أن المشكلة ليست مجرد نقص في الأدوات المنهجية، بل تتجاوز ذلك إلى إشكالات معرفية، أكاديمية، وبنيوية تتداخل فيها عوامل ثقافية، إدارية، ومؤسساتية، وأن أحد أبرز التحديات التي تم رصدها هو استمرار هيمنة النموذج النظري على البحث السوسيولوجي، حيث يتم تدريس النظريات الكبرى دون تدريب حقيقي على تقنيات البحث الميداني، ونتيجة لذلك، يُنتج الباحثون دراسات تستند إلى افتراضات نظرية مسبقة، بدلاً من أن تستمد مفاهيمها وتحليلاتها من معطيات الواقع الاجتماعي نفسه. كما أن غياب التدريب العملي في المناهج الجامعية، وضعف استخدام الأدوات البحثية الحديثة، يزيد من الفجوة بين النظرية والممارسة، ولتجاوز هذا القصور يتطلب إعادة هيكلة جذريّة للبحث السوسيولوجي في الجزائر، وذلك من خلال تعزيز التكوين الجامعي الميداني، وتطوير المناهج البحثية بحيث تصبح أكثر ارتباطًا بالسياق الاجتماعي الجزائري، وتوفير بيئة أكاديمية وإدارية تدعم البحث الميداني بدلًا من عرقلته، بالإضافة إلى تعزيز العلاقة بين البحث السوسيولوجي والسياسات العامة والمجتمع، فالحل لا يكمن فقط في إضافة بعض الوحدات التطبيقية إلى المناهج الدراسية، بل في تغيير النظرة إلى البحث الميداني ليصبح جزءًا لا يتجزأ من الممارسة السوسيولوجية.

ومن بين أهم التوصيات التي يمكن استخلاصها من هذا العمل:

1. **إصلاح المناهج الجامعية:** بحيث يكون البحث الميداني جزءًا إلزاميًا من تكوين الطلبة في العلوم الاجتماعية.
2. **تعزيز التدريب على تقنيات البحث الميداني:** عبر إدماج أدوات التحليل الكمي والكيفي في التكوين الأكاديمي.
3. **تشجيع الإنتاج المعرفي المحلي:** الذي ينبثق من الواقع الجزائري بدلاً من إسقاط النظريات الغربية الجاهزة.
4. **تحفيز الباحثين على إجراء دراسات تطبيقية:** من خلال توفير التمويل اللازم وتسهيل الإجراءات الإدارية للحصول على البيانات.
5. **ربط البحث السوسيولوجي بصنع القرار:** عبر إشراك الباحثين في وضع السياسات الاجتماعية والاقتصادية.

6. **تعزيز الوعي المجتمعي بدور البحث الاجتماعي:** من خلال نشر ثقافة البحث الميداني والتفاعل مع قضايا المجتمع مباشرة.

إن مستقبل البحث السوسيولوجي في الجزائر مرهون بمدى قدرتنا على تجاوز الرؤية التقليدية التي تختزل السوسيولوجيا في تنظير مجرد، والانتقال إلى سوسيولوجيا ميدانية تعكس التحولات العميقة التي يشهدها المجتمع الجزائري، فنحن بحاجة إلى خطاب سوسيولوجي جديد يستند إلى الواقع ويستمد منه فهمه، بدلًا من أن يفرض عليه تفسيرات جاهزة قد لا تكون ملائمة لخصوصياته، وفي النهاية، لا يمكن للسوسيولوجيا أن تحقق وظيفتها الأساسية إلا إذا أصبحت قادرة على فهم المجتمع من الداخل، عبر ملاحظته وتحليله وفقًا لمعطيات ميدانية دقيقة، فالرهان ليس فقط إنتاج معرفة حول المجتمع، بل إنتاج معرفة قادرة على التأثير فيه، وتحقيق الفهم العميق الذي يمكن أن يشكل أساسًا لصياغة حلول اجتماعية فعالة، وهذا لن يتحقق إلا عبر ثورة معرفية تجعل من البحث الميداني حجر الزاوية في بناء السوسيولوجيا الجزائرية.

قائمة المراجع:

❖ **العربية:**

- دوركايم، إ. (1895). قواعد المنهج في علم الاجتماع.
- السبتي، م. (2020). السوسيولوجيا في العالم العربي: الواقع والآفاق. دار الكتاب الجديد.

❖ **الأجنبية**

- Babbie, E. (2020). La pratique de la recherche sociale (15e éd.). Cengage Learning.
- Bourdieu, P. (1977). Outline of a Theory of Practice. Cambridge University Press.
- Bourdieu, P. (1997). Sociology in Question. SAGE Publications.
- Charmaz, K. (2006). Constructing Grounded Theory. SAGE Publications.
- Creswell, J. W. (2014). Research Design: Qualitative, Quantitative, and Mixed Methods Approaches. SAGE Publications.
- Denzin, N. K., & Lincoln, Y. S. (2005). The SAGE Handbook of Qualitative Research. SAGE Publications.
- Flick, U. (2018). An Introduction to Qualitative Research. SAGE Publications.
- Geertz, C. (1973). The Interpretation of Cultures. Basic Books.
- Marx, K. (1867). Das Kapital. Verlag von Otto Meissner.
- Smith, J. (2019). Sociology and the Real World: Connecting Theory and Practice. Oxford University Press.
- Merton, RK (1949).Théorie sociale et structure sociale. Presses libres.